هجمات مضادة

في

التاريخ الإسلامي

الدكتور عماد الدين خليل

مكتبة النور

الطبعة الأولى : ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م

مكتبة النور

٨ شارع الأهرام ، روكسي ، مصر الجديدة ، هاتف : ٢٥٨٤٥٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

بدأ الهجوم المضاد لوقف الإسلام وتدمير حركته وإعاقتها عن مواصلة السعي لتحقيق أهدافها ، منذ فترة مبكرة ، اللحظة التي أعلن فيها رسول الله ﷺ (الشهادة) التي بعثه الله بها إلى الناس كافة .

فمادام الإسلام ، في نهاية التحليل وبدايته أيضاً حركة انقلابية ضد كل القوى والزعامات والطبقات والجماعات المستفيدة من ا ستعباد الإنسان ووقف حريته ، وكبت طاقاته الفعالة عن الانطلاق والإبداع ، فإنها ستجد نفسها بمواجهة خطر أكيد يسعى إلى تدمير مصالحها ؛ بل وجودها نفسه ، لكي يفتح الطريق المسدود بين الله والإنسان ، ولكي يعيد تركيب المجتمع بما لايتبقى معه أي استغلال أو استعباد .

وكانت شهادة (لا إله إلا الله) هي شعار هذه الحركة الانقلابية ، ومفتاحها أيضاً (لا إله إلا الله) أي لا حاكم ولا مشرع ولا رب إلا الله .

وكانوا يعرفونها جيداً منذ اللحظات الأولى ولهذا كانوا مستعدين أن يتنازلوا عن كل شيء ،وأن يحاوروا الرسول ﷺ في كل جانب ، إلا في هذه حيث كان إلحاحهم على التنازل عنها وكان إصرار الرسول ﷺ على التمسك بها لأنها البدء والمنتهى ، ولأنها الوجود والمصير .

(والله ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني وا لقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

اعلنها الرسول ﷺ لكي يحسم الأمر فلا يطمع أحد بالعودة إليه مرة

أخرى ... ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ كلها ، وحياة أصحابه رضي الله عنهم جميعاً صراعاً لا يهدأ من أجل (إظهار) هذه الشهادة وتنفيذها في الأرض ، ولقد تحملوا من أجلها الكثير ، ومات كثير منهم دونها ، وهم أشد ما يكونون سعادة وتوحداً .

ولما كانت الصيحة الأولى موجهة إلى سمع الوثنية العربية ، فلقد كانت هذه الوثنية أول من بدأ الهجوم المضاد ، وتتابعت من بعدها الهجمات لكي تغطي تاريخ القرون الأربعة عشر من عمر الإسلام .. ولا تزال ... وكان أتباع هذه العقيدة في معظم الأحيان قديرين على الردّ ، مستعدين للمجابهة ، واقفين للخصم بالمرصاد .

كلنا يعرف كيف كان الصدام رهيباً منذ لحظاته الأولى بين قلة من أتباع الرسول ﷺ وبين خصمهم الوثني الشرس الذي يملك السلطة والجاه والمال والرجال [١] .

بعد الهجرة إلى المدينة وقيام دولة الإسلام ، كان متوقعاً تماماً أن تواصل قريش هجومها المضاد إزاء الكيان الجديد ، وأن تصعّد صراعها قبل أن يصلب ويشتد عوده ، ولم يشأ الرسول ﷺ أن يمنحها فرصة البدء بتوجيه الضربة وامتلاك زمام المبادرة فبدأ فور تثبيت أسس دولته الجديدة في المدينة صراعه المتواصل ضد الوثنية العربية ذلك الصراع الذي استمر واتسع نطاقه لكي يغطي مساحات واسعة من العصر المدني [٢] .

وبموازاة هذا الهجوم الخارجي المضاد الذي قادته الوثنية العربية تعرض

---

(١) تناولت ذلك بالتفصيل في كتابي (دراسة في السيرة) ص ٥٧ ـ ٩٤ ولذا سأكتفي هنا وفي مواضع أخرى بإحالة القارىء إلى الكتاب المذكور (مؤسسة الرسالة ـ ١٩٧٤) .

(٢) انظر التفاصيل في المرجع السابق ص ١٧١ ـ ٢٦٨ .

الإسلام لهجوم مضاد آخر يمكن اعتباره امتداداً للوثنية ، لا يقل خطورة لكونه ينبثق من داخل المجتمع المسلم نفسه هذه المرة : إنه حركة النفاق التي أطلّت برأسها منذ بدايات العصر المدني وظلت تواصل تخريبها إلى ما قبيل وفاة الرسول ﷺ [٣] .

ثم ما لبثت الوثنية العربية أن عادت لتقوم بهجومها المضاد الكبير الثاني ، حتى قبل أن يتوفى الرسول ﷺ ، تحت غطاء حركة الردَّة والتنبؤ التي امتدت إلى معظم مساحات جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها .

وعندما توفي ﷺ وجدت الطليعة التي نظمها وكونها طيلة عهد الرسالة ، مهاجرين وأنصاراً ، نفسها أمام مسؤولياتها العقيدية الكاملة مباشرة : حماية الوحدة الإسلامية من التفكك ، والمجتمع الإسلامي من مؤثرات القوى الداخلية والخارجية التي دأبت على شده إلى الوراء وإعاقة نموه وتقدمه لتحقيق عالمية الإسلام والتزام شريعته .

حقاً ، لقد هزّهم حتى الأعماق نبأ وفاة نبيهم وقائدهم عليه السلام ولكنها الهزة الموقوته التي ما لبثت أن عادت بالرجال إلى وعيهم الكامل على صوت أبي بكر ، رفيق الرسول ﷺ ، وهو يقول لهم بوضوح وحسم : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم يتلو عليهم الآية الكريمة ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [٤] .

إلاّ أنه لأسباب تاريخية وجغرافية صرفة انقلبت الأكثرية الساحقة من

---

(٣) انظر التفاصيل في المرجع السابق ص ٣٦٣ ـ ٣٨٩ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٤٤ .

العرب على عقبيها وارتدت عن الإسلام ارتداداً كلياً أو جزئياً .

كانت هنالك دوافع العصبية القبلية التي يمتد عمرها إلى عشرات القرون ، والإلف الاجتماعي والنفسي الذي اعتاده العرب عبر هذه القرون الطويلة حيث الاندماج النهائي في الوحدة القبلية ورفض تجاوزها إلى ما هو أبعد .... التسيّب في الانتماء إلى قيادة مركزية واحدة ، والتفلّت من أي التزام خلقي ، وكان هناك فقدان الوعي السياسي الذي تقوم عليه وحدة الأمم والجماعات ، كما كان هناك الطموح الشخصي لزعماء القبائل ، والتأثيرات التي لم يلتفت إليها كثير من المؤرخين ـ للقوى المهزومة في الداخل كاليهودية والنصرانية والمجوسية والمعسكرات المعادية في الخارج ، وبخاصة البيزنطيين والساسانيين . وكان هناك ـ فضلاً عن هذا وذاك ـ ضيق الفترة الزمنية بين وصول الإسلام إلى أغلب الجماعات والقبائل العربية في الجزيرة وبين وفاة الرسول ﷺ ، بين الزمن المحدود الذي أتيح للإسلام أن يتحرك خلاله وبين المكان الواسع الذي تحتم انتماؤه للإسلام وبخاصة في أعقاب نزول آيات (براءة) من سورة التوبة في أواخر العام التاسع للهجرة وإعلان إلغاء الوجود الوثني من جزيرة العرب .

غير أن أبا بكر الذي اختارته الأمة الإسلامية خليفة لرسول الله ﷺ في قيادتها يوم السقيفة ، اليوم الذي قدرت فيه هذه الأمة على أن تمارس تجربة انتخابية رائدة في التاريخ البشري ، رغم جدة هذه التجربة في تاريخها ، وتصل ، عبر حوار سلمي يقوم على الكلمة والحجة والبرهان ، ويتجاوز منطق العنف والدم ، إلى اختيار الرجل الذي سيحمل المسؤولية ، اعتماداً على ماضيه في الإسلام ، ومكانته من الرسول ﷺ ، وقدراته الفذة ، أبو بكر هذا سرعان ما بدأ بتنفيذ برنامجه الذي طرحه في

أول خطبة له في مسجد المدينة [٥] وذلك بإعلان الجهاد ضد المرتدين ، رغم خطورة المجابهة ، ورغم المعارضة الواسعة التي جوبه بها من قبل كبار الصحابة الذين ألحّوا عليه بالتريّث قبل الإقدام على المجازفة التاريخية التي لا يعرف أحد نتائجها ، إلاّ أنه أصرّ على القتال وقال : « والله لأقاتلنهم حتى ولو تخطفتني الذئاب » وعندما أشاروا عليه بضرورة التفريق بين تاركي الصلاة ومانعي الزكاة ، كيلا ترميه العرب عن قوسٍ واحدة ، أجابهم : « لن أفرّق بين هؤلاء وهؤلاء والله لأقاتلنهم على عقال كانوا يؤدونها لرسول الله » .

ليس هذا فحسب ، بل إنه أصرّ على توجيه جيش اسامة بن زيد إلى فلسطين لتأديب القبائل العربية المتنصّرة الموالية للروم ، وهو الجيش الذي يضمّ زهرة قوات المسلمين وقال : « لن أردّ جيشاً جرّده رسول الله ﷺ » .

ومن خلال هذا الإصرار ، هذا الالتزام الفذّ بمفهوم الجهاد الحاسم ، مضى أبو بكر يحقق الانتصارات المتتالية على المرتدين ، يكنس تجمعاتهم وينكّس راياتهم الواحدة تلو الأخرى ، معتمداً على قادة محنّكين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة والعلاء بن الحضرمي وعكرمة بن أبي جهل وسعيد بن العاص وغيرهم ، وعلى إيمان جنده العميق الذي كان يدفعهم إلى ساحات الموت فرحين مستبشرين واثقين بنصر الله ، ويفجّر طاقاتهم القتالية فيغدو الواحد منهم عشرة من المقاتلين ، واعتماداً ـ كذلك ـ على الجيوب الإسلامية التي ثبتت على عقيدتها في مناطق الردّة رغم ما تعرّضت له من صنوف العذاب والاضطهاد .

وسقط زعماء الردّة الذين ادّعى بعضهم ـ فوق ذلك ـ نبوّات زائفة :

---

(٥) وانظر الطبري : تاريخ ٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥ (طبعة دار المعارف) ، القاهرة ـ ١٩٦٢ .

طلحة بن خويلد ، مالك بن نويرة ، مسيلمة الكذاب ، الحطم ، ذو التاج ، الأشعث ، الأسود العنسي .. وعدد آخر من صغار المرتدين في الشمال ، وعادت الجزيرة العربية مرة أخرى إلى وحدتها التي أرادها لها الرسول ﷺ ، وبذل الجهود المتواصلة من أجل أن تكون المنطلق الاستراتيجي لتحقيق عالمية الإسلام .

وعلى مدى العصرين الراشدي والأموي لم تأل الوثنيات العتيقة في أواسط آسيا وشمالي أفريقيا ، حيث امتد الإسلام ، لم تأل جهداً في مقاومة هذا الدين ، وقامت عبر العصر الأموي على وجه الخصوص ، بسلسلة من الهجمات المضادة كان بعضها يحقق أهدافه ويدفع المسلمين إلى التراجع مسافات كبيرة عما أحرزوه من تقدم ، وكان بعضها الآخر يسحق في مهده ، ولكن في كلتا الحالتين كانت الهجمات المضادة تحمّل القوى الإسلامية الكثير من الجهد والعنت وتفقدها الكثير من الرجال والمال والزمن . وكان يمكن ـ لهذه القوىٰ ـ أن تلعب دورها ـ لو لم تستنزف في هذه الساحة ـ بالتعجيل في انتشار الإسلام وتعزيز أركان دولته .

ولكن المقاتل المسلم ظل دائماً مستعداً لبذل أقصى ما يستطيع من جهد وتضحية لمجابهة خصومه الذين كان يجد نفسه وإخوانه بينهم ـ أحياناً ـ كجزيرة منقطعة وسط بحر بشري واسع ممتد ، لكنهم ـ بثباتهم وصبرهم ـ كانوا يخرجون في معظم الأحيان منتصرين ليس فقط على المستوى العسكري ولكن بما هو أهم من هذا بكثير : كسب هذه القوى البشرية الهائلة إلى صف الإسلام .

إن المرء ليتذكر هنا ذلك السيل من الهجمات المضادة التي قامت بها الجماعات التركية الوثنية في أواسط آسيا ، والبوذية في الهند إلى حدٍ ما ، وقبائل البربر في الشمال الإفريقي وكيف آلت في معظم الأحيان إلى انضواء

هذه الكتل البشرية في كيان الدين الإسلامي والدولة الإسلامية فأمدت بدمائها الشابة وقدراتها الفتية عالم الإسلام بطاقات إضافية مكّنته من المزيد من التحقق بالقوة والانتشار على كافة المستويات العقيدية والسياسية والعسكرية وحتى الحضارية .

واستمرت الهجمات الوثنية عبر العصور العباسية التالية ، ولكن حدّتها كانت قد خفت إلى حدٍ كبير لكي ما تلبث في أخريات هذه العصور أن تبرز في واحدة من أشد الهجمات الوثنية عنفاً وشراسة في تاريخ الإسلام ، تلك هي الهجمة المغولية التي تبدت في مطالعها الأولى نكبة كبرى مُني بها الإسلام والمسلمون ، ثم ما لبثت في نهاية المطاف أن تكشفت هي الأخرى عن كسب لا يقل أهمية عن ذلك الذي تحقق في أعقاب كافة الهجمات الوثنية المضادة التي سبقتها في الساحتين الأسيوية والأفريقية ، ولنا أن نقف قليلاً عند هذا الهجوم نظراً لأهميته وللمساحة الزمنية والمكانية الكبيرة التي شغلها عبر التاريخ .

كثيرة هي الوقائع التاريخية التي كانت تبدو للوهلة الأولى ، وفي بداياتها على وجه الخصوص خطأ ما ، أو نكسة قاسية ، أو خسارة فادحة ، أو ممارسة غير مبررة ولا معقولة ، وأن ليس ثمة حكمة من ورائها ، ولكنها ما تلبث أن تتكشف ـ في نهاية الأمر ـ عن الحكمة والصواب ، ويتبدى واضحاً للعيان المغزى من تنفيذها في هذا الحيّز من المكان ، وذلك المدى من الزمان .. إنها (الخيوط) الضرورية لاستكمال الحبكة التي تنسجها حركة التاريخ في الذهاب والإياب ، لحمة وسدى .

إن الهجوم المغولي على عالم الإسلام ، كان بشكل من الأشكال واحداً من أبرز هذه الوقائع وأشدها خطراً .

لقد بدا كارثـة دمويـة رهيبـة ، واكتسـاحـاً مترعـاً بـالقسوة والضراوة ، وضربة همجية عمياء في صيرورة حضارة كانت تتألق سنى وعطاء ، وما قالـه مؤرخونـا القـدامى معروف ، ويكفي أن نقرأ في (التـاريخ الكامل) لابن الأثير بعض عباراتـه لكي نعرف من نبرتهـا التي لم نعتـدهـا في مؤلفـه الكبير هول المأسـاة ، إنـه يقول : « لقـد بقيت عـدة سنين معرضـاً عن ذكر هـذه الكارثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فأنـا أقـدم إليـه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليـه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟ ومن الـذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ويـاليتني مت قبل حـدوثهـا وكنت نسياً منسياً ، إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنـا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلـك لا يجـدي نفعـاً ، فنقول : هـذا الفعـل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قـال قـائل إن العـالم مـذ خلق الله سبحـانـه وتعالى ادم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقـاً ، فـإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ومن أعظم مـا يـذكرون من الحوادث مـا فعلـه بخت نصّر ببني إسرائيل من القتل ... ومـا بنـو إسرائيـل بـالنسبـة إلى من قتلوا ؟ فـإن أهل مـدينـة واحـدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيـل ، ولعـل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الـدنيـا .. إنهم لم يبقوا على أحـد ، بل قتلـوا الرجـال والنسـاء والأطفـال ، وشقـوا بطـون الحوامل وقتلوا الأجنّـة ، فـإنـا لله وإنـا إليـه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » (٦) .

لقد كان الأمر يبدو كالليل الذي ناء بكلكله على مساحـات واسعـة من عالم الإسلام ، حيث انطفأت مشاعل الحضارة واهتزت ثقـة النـاس بقـدرتهم

---

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢ / ٣٥٨ ـ ٣٥٩ (دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧) .

على الفعل والتحقق والإبداع ، وحيث الإحساس المدمّر بالهزيمة يتوغل حتى النخاع ، ونقرأ في مؤلف ابن الأثير كذلك ما يكاد يكون تجسيداً « كاريكاتيرياً » مضحكاً محزناً للأمر الذي آل إليه الكثيرون من أبناء عالم الإسلام ، يقول : « لقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم ، حتى قيل إن الرجل الواحد (من المغول) كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمدّ يده إلى ذلك الفارس ، ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري فأحضر سيفاً وقتله به ! وحكى لي رجل قال : كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق ، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا : ليكتّف بعضكم بعضاً ، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم ، فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا : نخاف . فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلّصنا ، فوالله ما جسر أحد أن يفعل فأخذت سكيناً وقتلته ، وهربنا فنجونا »[٧] .

وكانت المؤشرات كلها تؤكد للناس لا معقولية هذه الحركة التاريخية الرعناء وتعزّز لا معناها .

ولكن ما حدث عبر (التجربة) وفي خواتيمها قلب الأحكام والرؤى والتوقعات رأساً على عقب ، فبدت الهجمة المغولية الكاسحة كما لو كانت مرسومة على لوح معماري مهندس ، يعرف المقدمات ، و يسبر غور المعطيات ، ويحدس النتائج .. إنها تتكشف بمرور الوقت عن المزيد من الحكمة ، وفي نهاية المطاف تبدو للناظر إليها من الخارج ، بدءً ومصيراً ،

---

(٧) المصدر السابق ١٢ / ٥٠٠ ـ ٥٠١ .

تبدو مترعة بالحكمة .

فمن جهة كان هذا الهجوم بمثابة (التحدّي) الذي جاء في وقته المناسب تماماً لكي يمنح المسلمين القدرة على الحركة والفاعلية فيحرّروا أنفسهم من ضغوط الهزيمة وأوهاقها ، ويلموا شتاتهم ، ويوحدوا طاقاتهم لمجابهة المصير ، وكانت عين جالوت هي ساحة الاختبار التي قبل فيها هذا التحدّي وتحققت الاستجابة التي منحت المسلمين الصيغة التاريخية التي تمكنهم من حماية ذاتهم ومواصلة إبداعهم الحضاري ، ولقد أتاحت هذه الوضعية للمقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ، والتي تعثرت حيناً من الدهر ، أن تواصل الطريق حتى نهايته ، وأن توجه ضرباتها إلى آخر المعاقل وأشدها تحصّناً فتحررها من قبضة الغزاة وتعيدها إلى أصحابها بعد قرنين من الزمن .

ثم إن المغول ، وهم يقومون بهجمتهم الكاسحة تلك قدروا على أن يطووا تحت جناحهم ،ويمسحوا من الوجود جيوب الباطنية المتحصنة في جبال فارس والتي كانت قد مارست لأكثر من قرن من الزمن أشد صنوف الغدر بالمسلمين والتزييف والتشويه لعقيدتهم وفكرهم ... والظالم سيفي انتقم به وانتقم منه ، كما ينقل الرسول ﷺ عن الله سبحانه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوز كل التوقعات والتخمينات يومها بإعلان انتماء أحد أجنحة المغول الثلاثة الكبيرة والمسمى بالجناح الذهبي جنوبي روسيا إلى الإسلام ، وما لبث بعد فترة لم تتجاوز العقود المحدودة من الزمن أن لحقه الجناح الرئيسي في بلاد فارس والعراق .

حشود هائلة من خيرة المقاتلين ، وجماعة فتية قديرة على الفعل والإبداع ، تجد نفسها منجذبة إلى عقيدة الأمة التي غلبتها وقهرتها ، ويجد

عـالم الإسلام نفسـه يتلقى دفعـة جـديـدة من الطـاقـة ، مترعـة بـالحيويـة والفاعلية .

ومعروف في بداهات الاجتماع أن المغلوب مولعّ بتقليـد الغـالب ، ولكن ها هنا انعكست المقولة فانتمى الغالب إلى عقيدة المغلوب .

إنه الدين الذي يملك من قوة الجذب ما يجعله يصهر ويذيب ..

أليس في هـذا كلـه مـا يشير إلى الحكمـة من واقعـة الغزو المغـولي لعـالم الإسلام ؟

ترى كم من وقائع التاريخ بدا للوهلة الأولى ، كما تبدت هجمـة المغول ، عبثاً ودماراً ، ثم ما لبث فيما بعد أن تكشّف عن النظام والبناء في حسابات النموّ التاريخي للعالم ؟

كثيرة جداً ، ويكفي أن نقرأ في كتاب الله هـذه الآيـة : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئـاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمـون** ﴾ [٨] . لكي يتبين فعـلاً كيف أن التـاريـخ ، بـوقـائعـه وأحداثه ، يجيئ مصداقاً لكلمات الله .

تضـاءلت حـدة الهجمات الـوثنيـة المضـادة لـلإسـلام ، سيما بعـد اعتنـاق قطـاعـات واسعـة من المغول للعقيـدة التي سعوا للقضـاء عليهـا أول الأمر ، ومضت قرون والمعركـة الأسـاسيـة بين الإسلام وخصومـه تنصب على محـور الصرا ع بينه وبين الغرب النصراني : أسبانيا .. الالتفـاف .. الاستعمار .. ثم ما لبث أن برز في العصر الحديث خصم جديـد هو (الشيوعيـة) التي يمكن أن نحسبهـا على الوثنيـة لأكثر من سبب ، فهنـاك تعبّـدهـا للمنظور المـادي بمعنى من المعاني واعتباره القوة الفاعلة في الكون والعالم ، وهناك ما تتضمنـه

---

(٨) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

العقيدة الشيوعية من صنميّات تنصب حيناً على (الطبقة) وحيناً على (الواقع الاقتصادي) وحيناً ثالثاً على (الزعيم) الشيوعي الذي يتربع قمة الهرم الأيديولوجي أو السياسي ، وهنالك - أيضاً - الارتباط الكامل بالأرض وتلقي الفكر من مصادره البشرية ورفض أي ارتباط بالسماء بأي شكل من الأشكال .

ولم يكن الهجوم المضاد الذي شنته الشيوعية على الإسلام وعالمه بأقل عنفاً وشراسة من الهجمات التي شهدتها المحاور الأخرى ، إن لم يفقها في بعض الأحيان ، ولنتذكر - على سبيل المثال - ما فعله ستالين مع مسلمي الاتحاد السوفيتي ، وبخاصة في القرم وتركستان ، وما فعله تيتو مع مسلمي يوغسلافيا في أعقاب اندحار ألمانيا في الحرب الثانية ، وما شهدته الصين في بدايات تشكل دولتها الشيوعية إزاء ملايين المسلمين هناك ، وما تشهده أفغانستان عبر السنين الأخيرة من محاولات سوفيتية لسحق إسلاميتها بكافة الصيغ والأساليب التي قد لا تقرها أبسط الأعراف والقيم الدولية والإنسانية .

وقد انطلقت هذه الهجمة الشيوعية المادية ضد الإسلام وعالمه في خطّين متوازيين تمثل أحدهما بالهجوم (العقيدي) على الإسلام وتاريخه وكتابه ونبيّه وحضارته ، فيما نجد انعكاساته في كتابات الماركسيين الأوربيين أو الأسيويين المنتمين للمذهب نفسه بما فيهم العديد من المسلمين أنفسهم .

وتمثل الخط الثاني بالهجوم المادي : العسكري والسياسي على المسلمين شعوباً ودولاً وقياداتوأشخاصاً فيما ألمحنا إلى نماذج منه .

وكان الهجوم الشيوعي في محوره الأول يستهدف تدمير ثقة المسلمين بعقيدتهم وشريعتهم وحضارتهم وشخصياتهم القيادية ، ويسعى إلى زعزعة

يقينهم وإفراغ قناعاتهم الدينية من محتواها ، من أجل تحويلهم إلى الماركسية . أو وضعهم على الأقل ، في حالة انعدام الوزن لكي يسهل العبث بهم وبمقدراتهم .

أما على المحور الثاني فقد سعت الشيوعية إلى تصفية المسلمين جسدياً ، وإسقاط دولهم ، واستعمار أراضيهم .

وقد حققت الشيوعية في كلا المحورين الكثير مما استهدفته ، بل إنها بسبب من بطانتها الفكرية ، واتكائها الخادع على مفاهيم الحركة التاريخية ، وتطلعها الموهوم صوب مستقبل إنساني سعيد ، فضلاً عن استفادها - أحياناً - على ظهير قوي يتمثل باليهودية العالمية المتغلغلة في شرايين التنظيمات والقيادات الشيوعية ، تمكنت من تحقيق ما عجزت النصرانية عن تحقيقه في عالم الإسلام .

فلئن كانت حركة التبشير النصراني قد كسبت بعض الجماعات الإسلامية في أفريقيا وآسيا ، بطرائقها وإغراءاتها وضغوطها المعروفة ، فإن الشيوعية تمكنت من تحويل أضعافهم إلى عقيدتها ، وتدمير شخصيتهم الإسلامية ، وإغوائهم بجعلهم يتحولون إلى النقيض الذي يتولى بدوره كبر الهجوم على الإسلام .

لكن هذا الهجوم الشيوعي في محوريه لم يشق الطريق إلى هدفه بسهولة ، فإن المسلم ، على خلاف أتباع الديانات الأخرى ، يملك عقيدة ذات قدرة كبيرة على الردّ ، والتفنيد ، والمجابهة ، والتحدّي ، بل هي العقيدة الوحيدة التي تقف كفؤاً للمذهب الماركسي ، تقرع الحجة بالحجة وتردّ على البرهان بالبرهان ، وتمنح أتباعها في الوقت ذاته يقيناً واندفاعاً يمكنهم من مجابهة ضغوط الشيوعية على كل ما تملكه من ضغوط .

على المحور الأول تصدى حشد من الكتّاب والمفكرين والمؤرخين الإسلاميين للردّ على هجوم الأيديولوجية الماركسية ، ففنّد ودحض ، بل إنه تحول إلى مواقع الهجوم وراح يبيّن عناصر الخطأ والتزييف في نسيج الفكر الماركسي نفسه .

على المحور الثاني شهد التاريخ المعاصر العديد من حركات المقاومة والدفاع عن الذات ، سواء في نطاق الأرض الإسلامية التي ورثتها القيادتان السوفيتية والصينية عن عهود القياصرة والأباطرة ، والممتدة على مساحات شاسعة من آسيا وأجزاء من أوربا ، أو فيما وراء هذه الأرض حيث سعت الحركة الشيوعية إلى تحويل المناطق الإسلامية إلى ولايات تابعة للاتحاد السوفيتي أو الصين .

وقد تمكن عدد من حركات المقاومة الإسلامية تلك من دحر الهجوم الشيوعي ، بينما استنفذت حركات أخرى بسبب من عدم التكافؤ في القوى ، وبعد أن قدمت الكثير من التضحيات على كافة المستويات ، ولم تأت هيمنة روسيا على ما يسمى بالجمهوريات السوفيتية الآسيوية بسهولة ، أو بضربات سحرية كما يخيل للبعض ، وإنما بعد جهود وسياسات ومؤامرات متواصلة خسرت فيها الكثير على كل المستويات .

ومع ذلك فقد استطاع الإسلام في هذه المناطق أن يحمي ذاته من الفناء النهائي ، وأن يتحقق بالحدود الدنيا من الملامح والخصائص الدينية الأساسية ، بل أن يعود ، في أعقاب المحنة الستالينية في روسيا ، والماويّة في الصين ، لكي ينهض أكثر ويتحقق بمزيد من عناصر التحصّن والخصوصية الإسلامية ، وأن يفرض على القيادات الشيوعية سماع كلمته واحترامها [٩] ،

---

(٩) أحدث الدراسات التي تؤكد هذه الحقيقة صدرت عن دار النشر الفرنسية فلاماريون عام ١٩٧٨ بقلم الباحثة الفرنسية هيلين كارّير دانكوس ، الخبيرة المعروفة في شؤون (الماركسية الآسيوية) بعنوان (القوميات والدولة السوفياتية) وقد صدرت مترجمة إلى العربية في السنة =

رغم أن ذلك لم يُعد لهذه المناطق الإسلامية ذات التراث العقيدي والحضاري الغني ، الشخصية التي فقدتها ، ولن تقدر على استعادة أبعادها الكاملة إلا بزوال الاستعمار الروسي الجديد الذي يعتمد الأيديولوجية غطاء لمطامعه التوسعية التي لا تقل رغبة في الهيمنة والامتداد عما كانت تسعى إليه القيادات الاستعمارية الغربية .

وبموازاة الهجوم الشيوعي المضاد ، شهد العالم الإسلامي في العصر الحديث ، ولا يزال ، هجمات وثنية أخرى ، أقل أهمية وأصغر حجماً بطبيعة الحال ، وإن كانت النتائج التي تمخضت عنها جديرة بالاهتمام . وقد تمركزت هذه الهجمات في الساحتين الهندية والأفريقية حيث لعب البوذيون والهندوس ، إذا جاز لنا حسبانهم على الخط الوثني ، والأفارقة الوثنيون في طول القارة وعرضها ، دوراً خطيراً ضد الإسلام والمسلمين ، وقاموا ، ولا يزالون ، بسلسلة من الضغوط وللتضييق التي تتراوح بين الحرمان من الحقوق المدنية والإنسانية وبين التصفية الجسدية بموجات متعاقبة من المجازر التي كانت تفتعل لتنفيذها أتفه الأسباب ، والتي ذهب ضحيتها ولا يزال عشرات الألوف من المسلمين .

وإذا كانت الهجمة الشيوعية تحمل بطانة مذهبية تزيدها خطورة ، فإن هذه الهجمات الوثنية لا تحمل هذا البعد ، ومن ثم تظل خطورتها محصورة في نطاق قدراتها المادية والسياسية الصرفة على تضييق الخناق على المسلمين وإبادتهم ، رغم أنه يتحتم علينا ألاّ نغفل هنا عن الخلفيات والإسناد الصليبي المتواصل الذي يسعى إلى تسخير هذه الهجمات لتحقيق أهدافه واتمادها رأس حربة ضد الوجود الإسلامي .

= التالية عن دار الطليعة في بيروت . ولن يتسع المجال هنا لإيراد الشواهد والنصوص ، ويكفي أن أحيل القارىء إلى الفصلين السابع (ص ١٤٣ ـ ١٥٩) والثامن (ص ١٦٠ ـ ١٦٧) من الكتاب المذكور .

(٢)

وقفت (اليهودية) للدعوة الإسلامية بالمرصاد منذ بدايات مبكرة ، وسعت بكل أسلوب إلى وقف حركتها بعد أن أصبحت تمثل تهديداً خطيراً للوجود اليهودي في جزيرة العرب [١٠] .

ورغم انفتاح صدر القيادات الإسلامية والمجتمع الإسلامي لليهود الذين عاشوا وسائر الجماعات الدينية غير الإسلامية بين ظهرانيهم فيما لم يشهد له التاريخ نظيراً قط سماحة ، وتكافؤ فرص ، وتسنّماً للمناصب الكبيرة [١١] رغم هذا الانفتاح بل ربما بسببه ـ للأسف ـ واصل اليهود تآمرهم التخريبي ضد الإسلام عقيدة وشريعة ودولة ومجتمعاً ، وواقعاً مشهوداً ، وهم المعرف عنهم قدرتهم الفذة على التآمر والتخريب .

ولن نكون مغالين إذا قلنا إن عدداً من الاضطرابات والفتن ، والفرق المنحرفة ، والتجمعات المذهبية المناهضة للإسلام ، والحركات الاجتماعية المتحللة من التزاماته ، كانوا هم ـ اليهود ـ بعض من وقفوا وراءها وأذكوا نارها في محاولة منهم لإضعاف هذا الدين وخضد شوكته وطمس تميّزه بين المذاهب والأديان .

ويستطيع الباحث أن يلمس التأثيرات اليهودية ـ على سبيل المثال ـ في الخلفيات الفكرية ، أو المذهبية ، لبعض الأجنحة المتطرفة من الحركة الإسماعيلية كما يستطيع أن يلمس التأثيرات نفسها في الحركة البابية والبهائية في إيران ، فيما بعد ، فضلاً عن العديد من الفتن والدعوات الضالة التي

---

(١٠) تناولت ذلك بالتفصيل في كتابي (دراسة في السيرة) ص ٣١٩ ـ ٣٥٩ . ولذا أكتفي بإحالة القارىء إليه .

(١١) كما حدث في الساحة الأندلسية على سبيل المثال .

أشعلوها في المشرق والمغرب على السواء .

إن المجتمع الإسلامي مجتمع مفتوح على كل المستويات ، وكان بمقدور أي يهودي أن ينتمي لعقيدة هذا المجتمع دون أن يندمج فيه اندماجاً كاملاً ، وكان بمقدوره - كذلك - أن يبقى على يهوديّته ويظهر الإسلام . لم يكن هناك تحقيق هوية أو أي مقياس للتثبّت من مدى الولاء ، ولم تكن هنالك مؤسسات أمن أو شرطة تلاحق وتكشف أصحاب الولاءات المزدوجة كما يحدث في القرنين الأخيرين .

إن رجلاً كعبد الله بن سبأ ليس وحده في الميدان ، إنه - في الحقيقة - ليس فرداً ولكنه ظاهرة تاريخية : تستّر اليهودي بالإسلام والعمل من خلال انتمائه للمجتمع الإسلامي على تخريب هذا المجتمع وتدمير قياداته .

وإذا كانت بعض الأضواء قد سلّطت على (ابن سبأ) في فترات مبكرة من تاريخنا ، كما سلطت على حركة الدونمة - التي لعبت دورها المعروف في تدمير القيادة العثمانية بسبب رفضها السماح لليهود باستيطان فلسطين - في فترات متأخرة من تاريخنا ، فإنه حدث بين الظاهرتين : السبأية والدونمة ، عشرات من الظواهر وجرت مئات من المحاولات على المستوى نفسه : التستّر بالإسلام ظاهراً وتخريبه باطناً .

بل إننا نشهد في تاريخنا المعاصر ما يؤكد هذه الظاهرة ، بما إنها واحدة من صيغ العمل اليهودي في عالم الإسلام ، وكلنا يذكر ذلك الرجل المسمى (كمال ثابت أمين) والذي تمكن تحت غطاء اسمه العربي هذا أن يواصل قفزاته في سلم السلطة في سوريا في أواسط الستينات حتى كاد أن يصبح وزيراً ، فضلاً عن مهامه الحزبية المتقدمة . ثم ما لبثت الصدفة وحدها (!!) أن كشفت عن حقيقته فإذا به الجاسوس الإسرائيلي (إيللي كوهين)

الذي لعب دوراً خطيراً في تقديم المعلومات الدقيقة والخرائط المفصّلة عن واحدة من أهم المواقع الجغرافية والستراتيجية في وطننا العربي : الجولان ، ليس هذا فحسب بل إنه استطاع أن ينشىء شبكة من العلاقات كان لها أكبر الأثر في تمكين إسرائيل من وضع يدها على هذا الموقع الخطير[١٢] .

ويقيناً ، فإن كمال ثابت أمين ، أو ظاهرة (إيللي كوهين) ليست وحدها في تاريخنا المعاصر وإنما هناك الكثير ، سيما وأن إسرائيل . الدولة اليهودية ، تقبع بين ظهرانينا ، وتمارس فيما تمارسه من أساليب ، كل الصيغ التي تمكنها من التسلل إلى قلب المجتمعات الإسلامية لتحقيق أهدافها التي تتراوح بين التخريب العقيدي والأخلاقي ، وبين الكسب السياسي أو العسكري ، وهي لن تألو جهداً في الاستمرار على هذه الصيغة ، خاصة وأن شبكة الدفاع عن الذات العربية والإسلامية قد أصابها من التمزق الذي صنعته قوى شتى مرتبطة بمراكز التوجيه العالمية ، الشيء الكثير ، وانفتح في جسدها بعد التحجيم المرسوم لعقيدتها الإسلامية ، من الثغرات ما سوف يمكّن اليهود من التسلل حيثما شاءوا لتوجيه ضرباتهم الماكرة ، إلا أن يأذن الله لهذه الأمة بإعادة تحصين ذاتها ،و تعزيز شبكة دفاعها العقيدية والأخلاقية والحضارية بمواجهة خصومها الأبديين : بني إسرائيل ..

في أواخر القرن الماضي تبلور الهجوم اليهودي المضاد على الإسلام والمسلمين من خلال الحركة الصهيونية التي كرّست مؤتمر بازل بزعامة هرتزل عام ١٨٩٦ لتثبيت برنامج عملها ووضع خططها المفصّلة التي استهدفت إقامة وطن قومي لليهود ، وسعت في البداية إلي اعتماد الأساليب والصيغ الدبلوماسية لفتح ثغرة في جسد الدولة العثمانية يتدفق منها اليهود

(١٢) للاطلاع على التفاصيل الدقيقة لهذه القضية انظر كتاب محمد جلال كشك : (ايللي كوهين من جديد) ، دار الإرشاد - بيروت .

إلى فلسطين ويمهدون الطريق لدولتهم هناك ، وإذ وقف السلطان عبد الحميد بمواجهة المحاولة ببطولة نادرة ، لجأ الصهاينة إلى اعتماد الأسلوب الآخر : التآمر تحت ستار انتماء قطاع كبير من يهود الدولة العثمانية للإسلام واندماجهم في الحياة الاجتماعية ، هنالك حيث نشط الدونمة في تشكيل وتوسيع أنشطة جمعية الاتحاد والترقي ودفعها لتنفيذ المؤامرة الكبيرة : إسقاط الرجل الذي كانت قيادته تمثل جداراً صلباً بمواجهة أطماع يهود وتآمرهم .

ففي عام ١٩٠٠م دخل عما نوئيل قره صو أفندي زعيم يهود سلانيك على السلطان بفضل الفريق عارف بك وأبلغه أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة السلطانية ، وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعيّنها الحكومة . فغضب السلطان وطرد قره صو من حضرته .

ولقد عبّر هرتزل عن المسألة بوضوح حين قال : « إذا أعطانا جلالة السلطان فلسطين فإننا نتولى حل مشاكل تركيا المالية حلاً تاماً » ولكن السلطان عبد الحميد ردّ على هرتزل في حزيران عام ١٨٩٦ بالجواب الحرفي التالي : « الامبراطورية التركية لا تخصّني ولكنها تخصّ الشعب التركي فلا أستطيع أن أوزّع أي جزء منها . ليدّخر اليهود ملياراتهم وعندما تتقسم إمبراطوريتي فإنهم يستطيعون الحصول على فلسطين بدون بدل ، إنما جثتنا فقط هي التي ستقتسم ولن أرضى مطلقاً بأن يشرّح جسمنا ونحن أحياء » .

وكان السلطان عبد الحميد قد أصدر عام ١٨٨٨ منشوراً يمنع الهجرة الجماعية اليهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ومنها فلسطين طبعاً ، كذلك

قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر في فلسطين .

وكان لابدّ للسلطان أن يدفع الثمن إذ قامت حركة الاتحاد والترقي التي سيطرت على قيادتها وكوادرها المتقدمة عناصر ماسونية ويهودية إسلامية الظاهر ، بخلعه عام ١٩٠٩ ومن عجب أن الرجل الذي تقدم إليه بقرار الخلع هو الزعيم اليهودي قره صو نفسه .

وما أن سقط الرجل وآلت القيادة العثمانية إلى أيدٍ صنعت على عين اليهود ورعايتهم حتى تغير الحال وأخذت الحركة الصهيونية تحظى بمزيدٍ من الامتيازات منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١) قيام المنظمة الصهيونية بتمويل صحيفة (التركي الفتي) وعمد الصهيونيون إلى وضع رئاسة تحريرها بيد ناشر اسمه (جلال نوري بك) أحد الوجهاء النافذين وابن وزير تركي ، وحين انضم فلاديمير جابو تنسكي إلى مكتب الأستانة بناء على توصية من جاكوبسن كانت شبكة الصحف التي يسيطر عليه الصهيونيون في منتصف عام ١٩٠٩ تضم ، بالإضافة إلى الصحيفة المار ذكرها : مجلة أسبوعية بالفرنسية (الفجر) يرأس تحريرها لوسيان سيوتو ، ومجلة أسبوعية باللغة اليهودية الأسبانية يرأس تحريرها داڤيد الكاون ، ومجلة أسبوعية بالعبرانية ، وقد تمكّن جابو تنسكي من كسب تعاون عدد من الشخصيات اليهودية التركية البارزة لصالح العمل الصهيوني ، وعلى رأس هؤلاء عضوان بارزان في البرلمان العثماني (نسيم روسو ونسيم مازلياح) واللذان سبق لهما أن شاركا في تأسيس حركة تركيا الفتاة .

(٢) أصبح اليهود بعد نجاح حركة الاتحاد والترقّي يأملون بالعمل في الاستيلاء على فلسطين بحرية بسبب من علاقة الحكام الجدد بهم ورأوا أن باستطاعة من غوريون وأمثاله من المهاجرين سراً أخذ الجنسية التركية .

(٣) جاءت حكومة تضم ثلاثة وزراء يهود ، وكان وزير ماليتها اليهودي الأصل يجمع حوله في الوزارة طائفة من المستغلين اليهود وسماسرة بيع الأراضي بما فيهم رئيس ديوانه ، والحكومة تترك المجال لهجرة اليهود إلى فلسطين وشراء الأراضي [١٣] .

وقامت الحرب الأولى لتنتهي بتصفية أملاك الخلافة العثمانية وتمزيق كيانها ، ولكي تغدو حبّاتها المتفرقة لعبة بأيدي الأمم المنتصرة ، هناك حيث تواصل اليهودية العالمية محاولتها لتحقيق هدفها ؛ وحيث يصدر وعد بلفور ، وتقوم الثورة البلشفية في روسيا ويمهد الطريق لقيام إسرائيل - ثمرة واحدة - من أشد الهجمات المضادة في تاريخ الإسلام مكراً وتضليلا .

---

(١٣) محمد جلال كشك : القومية والغزو الفكري ص ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٦٦ - ٢٧٣ (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ص ٣٧ - ٣٨ دار الإرشاد ، بيروت - ١٩٧٠ .

(٣)

نستطيع أن نضع أيدينا ، ونحن نتحدث عن الهجوم المضاد الذي نفذته الصليبية . (النصرانية الغربية) ضد المسلمين على ستة من المحاور التي تحرك عليها هذا الهجوم بصيغ دورية متعاقبة كادت أن تغطي المدى الزمني بين ظهور الإسلام والعصر الحديث . ولم يكن أوار الصراع على كل واحد من هذه المحاور يفتر قليلاً ، حتى يشب ثانية في محور جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفاً واستنزافاً للطاقات الإسلامية في مساحات واسعة من الأرض .

وهذه المحاور هي :

١ ـ البيزنطيون .

٢ ـ الأسبان .

٣ ـ الحركة الصليبية .

٤ ـ الالتفاف الأسباني ـ البرتغالي ـ الأوربي .

٥ ـ الاستعمار .

٦ ـ الاستعمار الجديد (الإمبريالية) .

ونكتفي هنا بالتأشير على كل واحدٍ من هذه المحاور في محاولة لاستخلاص الدلالات الأكثر أهمية ، أما التفاصيل والجزئيات فهي أمور يعرفها الجميع ويمكنهم الرجوع إليها في مظانها من المصادر والمراجع التي تناولتها ، كما أنها ليست من مهمة هذا البحث .

لقد كان انتشار الإسلام ـ كحركة عالمية ـ وانتصار دولته وتمكّنها في الأرض بمثابة تحدٍّ ليس فقط لعقيدة أوربا النصرانية (المحرّفة) ولكن لقياداتها الحضارية ،

ولوجودها العسكري والاقتصادي والسياسي ذاته ، ومن ثم كان ذلك الصراع طويل المدى بينها وبين عالم الإسلام ، والذي استغرق القرون الطوال ، ولا يزال ، وغطى مساحات واسعة في البرّ والبحر ، ولم تكن الدوافع الاقتصادية التي يحاول البعض أن (يفسّر) أو (يبرّر) بها تلك الهجمات سوى واحدة من العوامل الأساسية لهذه الهجمات الدورية ، كان العامل الديني أبرزها وأخطرها كما يتضح ويتأكد من مجرى الوقائع ذاتها .

●○●○●○●○●○●○●

البيزنطيون :

ترجع بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه ، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل ، وذات السلاسل ، ومؤتة ، وتبوك ، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد ، كان المعسكر البيزنطي يتحسّس الخطر الإسلامي الجديد القادم من الجنوب ، لاسيا بعد تمكّن الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالي الجزيرة بسادتهم القدماء : الروم .

وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء ، أو كردّ فعل لتحرك إسلامي ، فإن المحصلة الأخيرة هي أن هذا المعسكر بدأ يدرك ، أكثر فأكثر حجم التحدي الجديد ، ويعد العدة لوقفه .

صحيح أن هذه العدة لم تكن ـ أحياناً ـ بالحجم المطلوب ، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التي كانت القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها ، إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا المحور ، وازدادت اشتعالاً بعيد وفاة الرسول ﷺ وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون (١٤) .

بعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من أفريقيا ، على يدي القيادة الراشدة ، شهدت المراحل التالية من العصر الراشدي محاولات التفاف ، وردود أفعال عديدة ، وهجمات مضادة نفذها هذا المعسكر في البرّ والبحر ، ولكنها آلت في معظمها إلى الخسران ، ثم ما لبث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية ، وبفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها

---

(١٤) انظر : دراسة في السيرة للمؤلف ص ٢٨٢ ـ ٣١٦ .

الأمويون ، ومن بعدهم عدد من الدويلات الإسلامية في الشام ومصر وشمالي أفريقيا ، انحسروا بالكلية عن الشمال الأفريقي ، ومساحات واسعة من البحر المتوسط ، وانزووا هناك في شبه جزيرة الأناضول ، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوربا نفسها .

وهكذا ، وبمرور الوقت ، أصبح خطر هجماتهم المضادة محدوداً لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية دون أن تتعداه الى العمق إلا نادراً ، بسبب من يقظة القيادات الإسلامية وتحصينها خط الحدود من جهة ، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية ، وتوغلها في العمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى ، الأمر الذي لم يدع للإمبراطور البيزنطي - في معظم الأحيان - أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد اللهم إلا عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت إلا أنه حل محلها ، هناك ، ذلك الكيان الإقليمي (الحمداني) الذي تشكل في حلب قريباً من خط الثغور ، ووقف بالمرصاد لهذه المحاولة ، واستطاع أن يكسر حدّتها وأن يمتصّ الكثير من أندفاعها ، رغم أنها وصلت في إحدى اندفاعاتها إلى حلب نفسها وتوغلت في الجزيرة الفراتية وشمالي الشام .

ثم كانت وقعة ملازكرد التي حقق فيها السلاجقة عام ٤٦٣ هـ في قلب الأناضول نجاحاً ساحقاً ضد العمود الفقري للقوات البيزنطية بمثابة نهاية لتحديات الدولة البيزنطية وهجومها المضاد ، واستمر الأمر على تلك الحال حتى سقوطها بعد عدة قرون على يد العثمانيين .

(٢) الأسبان :

شهدت الساحة الأندلسية ، منذ بدايات مبكرة ، هجمات مضادة متواصلة ، قادمة من الشمال حيث يتحصّن الأسبان في المناطق الأشد وعورة ، ولقد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير قدرت القيادة الأموية عبره أن تجابه الهجوم المضاد لمدى ما يقرب من القرون الثلاثة وأن تحتويه وترغمه على الانحسار في الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الإيبرية . ثم جاءت دفقه الحيوية الإسلامية الجديدة مرتين ، إحداهما على يد المرابطين القادمين من المغرب ، والأخرى على أيدي أخلافهم الموحدين القادمين من هناك كذلك ، الأمر الذي مكّن الإسلام في الأندلس من الصمود بمواجهة التحدي ، ومقارعة الهجوم الأسباني المضاد بسلاح شبه متكافىء لمدى يقرب من القرون الأربعة .

لكن المسلمين هناك ما لبثوا ـ أخيراً ـ أن استنزفوا ، وزادهم ضعفاً انقسامهم على أنفسهم ، وصراعهم الدموي الطاحن فيما بينهم ، الأمر الذي حوّل الميزان لصالح القيادة النصرانية التي تمكّنت في نهاية المطاف من إسقاط آخر كيان إسلامي هناك : مملكة غرناطة عام ٨٩٧ هـ ، لكي ما تلبث ، تحت زعامة فرديناند وايزابيلا أن تنفذ أبشع مجزرة مذهبية في التاريخ البشري ، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التحقيق ، وقدرت بالتالي ، وبأساليبها التي تتجاوز البداهات والقيم الإنسانية ، فضلاً عن الدينية ، من تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الأسبانية ، ودمج الجماعات الإسلامية قسراً بالمجتمع النصراني ديناً وثقافة وسلوكاً [١٥] .

---

(١٥) وردت جوانب من مجزرة أسبانيا المذهبية في كتاب محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين (مطبعة مصر ، القاهرة ـ ١٩٥٨) .

هـذا هو السبب الـذي يفسّر لنـا لماذا انحسر الإسلام عن أسبـانيـا دون غيرها من الأراضي التي وصلها الإسلام . لقد كان سلوك السلطـة والكنيسـة الأسبانيتين تحدياً فوق الطاقة ، بل كان بعبـارة أدق بمثـابـة مـذبحـة محزنـة وتصفيـة جسـديـة شرسـة للوجود الإسـلامي لم يكن بمقـدور الإنسـان المسلم والجماعة المسلمة إزاءها الصمود بأية حال من الأحوال .

وقد يفسّر هذا ، إلى حدٍّ ما ، مـا شهـدتـه أوربـا الشرقيـة حيث جرت محـاولات لا تقل عنفـاً وشراسـة في بعض الأحيـان ، وحيث اضطر الوجود الإسلامي إلى الانكماش والتراجع عن مساحات واسعة من الأرض الأوربية .

ويجب أن نتذكر ـ كذلـك ـ أن الصراع المـذهبي والحضـاري ذا الطـابع المصيري الذي حكم علاقات آسيا بأوربا عبر التاريخ ، هو الذي جعل أوربا (تتشنج) إزاء امتـداد الإسـلام إلى أراضيهـا ، غربـاً في الأنـدلس وجنـوبي فرنسـا ، وشرقـاً في جهـاتهـا الجنـوبيـة الشرقيـة ، وتبـذل جهـوداً مريرة ومحاولات متواصلة من أجل إزاحة الوجود الإسلامي من هناك بأي أسلوب وبأية صيغة حتى لو تنافت مع أبسط قواعد التعامل الشريف مع الجمـاعـات والأديان ، من أجل التفرّد بحكم القارة ، ومجابهة التحدي الإسلامي فيما وراء الحدود .

(٣) الحركة الصليبية :

كانت حقبة الغزو الصليبي للمشرق الإسلامي طويلة المدى حقاً ، امتدت في المكان لكي تشمل مساحات واسعة من الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين ومصر والبحر المتوسط ، وامتدت في الزمان لكي تستغرق القرنين ، وإنها لحقبة مترعة بالقيم والدلالات ، وقد كتب عن أحداثها وتفاصيلها الكثير(١٦) لكن البحث عن مغزاها لم يواز أبداً هذا الكثير .

لقد تعاقبت على المشرق الإسلامي ثمانية حملات صليبية كانت تتوالى عليه بين الحين والحين إسناداً لشقيقاتها السابقات أو طمعاً في مغانم جديدة ، أو رغبة في تحقيق ما عجزت عنه الحملات الأخرى ، أو استجابة لتحديات ومخاطر جديدة برزت من جانب المسلمين أنفسهم .

لقد تمكّنت الحملة الصليبية الأولى التي انساحت إلى الأرض الإسلامية في أواخر القرن الخامس الهجري من التمركز هناك وإنشاء مملكة وثلاث إمارات كانت أولاها في (الرها) في الجزيرة الفراتية ، وثانيتها في أنطاكية على البحر المتوسط ، وثالثتها في طرابلس اللبنانية ، أما المملكة فكانت في بيت المقدس .

وانطلقت الحملة الصليبية الثانية بعد حوالي نصف القرن لكي ما تلبث

---

(١٦) انظر بشكل الخاص البحثين الموسعين عن الحروب الصليبية وهما : الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (جزءان ، القاهرة ـ ١٩٦٣) ، والشرق الأوسط والحروب الصليبية للدكتور السيد الباز العريني (القاهرة ـ ١٩٦٣) وكذلك تاريخ الحروب الصليبية لستيفن رنسمان (ثلاثة مجلدات) ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) ، وانظر الكتب التالية للمؤلف : عماد الدين زنكي ، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل ، ونور الدين محمود : الرجل والتجربة .

أن تعقبها حملة ثالثة بعد مرور عقود ثلاثة فحسب ، ومن ثم راحت الحملات التالية تترى حتى أذن الله بانقضاء دولة الغزاة الصليبيين في الأرض الإسلامية ، وبادالة الأيام منهم .

كانت تكاليف الحقبة باهظة بمعنى الكلمة ، استنزفت من الطرفين الكثير من الإمكانات والقدرات ولعبت دوراً خطيراً في عرقلة مسيرة الحضارة الإسلامية ولما كان الغزاة أقل تحضراً من المسلمين ، وأقرب إلى البداوة ، فإن عالم الإسلام كان أشد خسارة من خصمه بما لا يقبل مقارنة أو قياساً . ومع ذلك فإن التحديات التي صنعتها الهجمات الصليبية والقيم التي صاغها المسلمون وهم يتصدون للغزاة تمثل ولا ريب رصيداً كبيراً ينضاف إلى ما يتضمنه تاريخنا الطويل من تجارب وخبرات .

لقد كانت الحروب الصليبية حلقة من سلسلة طويلة في صراع الإسلام والباطل ، سبقتها حلقات على الطريق الطويل ، وأعقبتها حلقات أخرى ، فما دام هنالك عقيدة يطمح المنتمون إليها لهدي العالم وتحريره من الطواغيت ، وقيادته صوب الصراط ، فإن الخصوم سيرفضون (الدعوة) حرصاً على مواقعهم ومصالحهم ، وزعاماتهم وشهواتهم ، وسيعتمدون كل أسلوب لوقف الزحف التحريري الشامل ، ومادام أن الإسلام انتشر في أرض ، وسط ، ممتازة الموقع ، كثيرة الخيرات ، فإنه سيظل هدفاً لمطامع الأعداء .

لقد اصطرع الوثنيون واليهود والفرس والبيزنطيون مع الإسلام ،وجاء الاسبان والصليبيون (الفرنجة) من بعدهم ، وسيعقبهم المغول والبرتغاليون و الهولنديون والإنكليز والفرنسيون والإيطاليون والروس ... حلقات متعاقبة في سلسلة طويلة كان الإسلام عبرها يكافح ليس دفاعاً عن ذاته وأرضه ومعتنقيه فحسب ، بل هجوماً على مواقع الباطل لزحزحتها

وتدميرها ، وفتح الطريق أمامه ثانية لمواصلة الجهاد الدائم .

فالغزو الصليبي ليس أمراً جديداً ، ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية ، وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء .

ولقد كانت المقاومة الإسلامية لهذا الغزو تعبيراً فذاً عن استمرار تيار العقيدة في نفوس المسلمين ، على مستوى القمة حيناً وعلى مستوى القواعد معظم الأحيان . لقد صنعت الحقبة مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة وقد انتشر هؤلاء المجاهدون في كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة في كل الفترات ، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يضعفوا ولم يستكينوا أو يضعوا السلاح كانوا على استعداد في كل لحظة لركوب خيولهم والانطلاق سراعاً إلى الأهداف . إنهم كانوا ـ بالتعبير العسكري الحديث ـ يحملون إنذاراً من الدرجة القصوى .

والجهاد لاتصنعه النظريات والأماني ، والمجاهد لا يتحرك في الفراغ ، ولكنها التحديات التاريخية الكبيرة هي التي تصنع الجهاد وتبعث المجاهدين ، وتنفخ في المقاتل المسلم روح البطولة والتضحية والاستشهاد ، لقد كانت الحروب الصليبية تحدياً كبيراً ، لكن المسلمين عرفوا كيف يستجيبون له ويكونون (مجاهدين) كما أراد لهم الله ورسوله أن يكونوا .

وليس الجهاد عملاً سريعاً وانتظاراً لقطاف سريع . إنه صبر طويل ، وممارسة دائمة ، وتضحية بالغالي والرخيص ، وزهد في المغانم القريبة والمنافع العاجلة ، وقدرة على تعليق الرغبة المتعجلة بحلول النتائج ، وربطها بقدر الله ومشيئته .

إن أجيالاً من المجاهدين قد تنطوي قبل أن تنكشف النتائج ،وقبل أن يطالب أحد منهم بقبض الثمن أو رؤية النتيجة الحاسمة ، إنهم يدركون

جيداً أن عليهم أن يجاهدوا من أجل تحقيق كلمة الله في الأرض دفاعاً بمواجهة خصم ، أو هجوماً لسحقه وتدميره ، ولكن مصائر الصراع تبقى دائماً بيد الله ، قد يكشفها على المدى القريب ، وقد يطول السرى ويلتوي الطريق ، ولكن المجاهد يتحتم عليه في الحالتين أن يظل حاملاً سيفه ، مقاتلاً في ساحة العالم ، فالجهاد ماضٍ - كما يقول الرسول ﷺ - إلى يوم القيامة ، تكشّفت نتائجه أم ظلت مخفية في طيات الغيب البعيد ﴿ **وإما نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفينّك فإلينا مرجعهم ...** ﴾ [١٧] .

لقد استغرقت الحروب الصليبية مائتين من السنين ، لكن هذا المدى الطويل للعدوان لم يدفع رجال المقاومة المجاهدين إلى اليأس والتشاؤم وإلقاء السلاح ، ظلوا يقارعونه بالنَفَس القوي ذاته ، وتسلم الأجيال منهم الراية للأجيال حتى أذن الله بزوال العدوان وجلاء آخر غازٍ صليبي عن أرض الإسلام .

هل كان أحدٌ يتصور - في بدايات الحقبة المريرة - أنها ستدوم قرنين ؟ ومن كان يتصور - أيضاً - أن إمارات ثلاثاً ومملكة كبيرة ستطوى الواحدة تلو الأخرى من صفحة الوجود ؟

والحق أن طول أمد العدوان وامتداده على مسافة قرنين من الزمن ، لم يكن بسبب من نقص في القدرات البشرية والاقتصادية لعالم الإسلام ، أو ضعف في التزام الجماهير العقائدي وروحه الجهادية ، وإنما في غياب القيادة الموحدة المؤمنة الملتزمة الواعية ، عبر مساحات من الصراع الطويل . ويوم كانت تبرز قيادات كهذه كانت تتحقق الإنجازات الكبيرة ، وكانت النتائج الحاسمة تختزل حيثيات الزمن والمكان وتحقق من المعطيات ما شهد به

---

(١٧) سورة يونس آية : ٤٦ ، وانظر سورة الرعد آية : ٤٠ .

الغربيون أنفسهم .

إن زمن قيادة رجل كمودود ونور الدين محمود والناصر صلاح الدين ، لهو الزمن الذي تلقّى فيه الصليبيون أقسى الضربات وتمكن المجاهدون خلاله من تحقيق أكبر الإنجازات ، ولكن كم من أمثال هؤلاء القادة برزوا عبر الحقبة الطويلة ؟

إن قيادة المقاومة لو أتيح لها أن تتواصل كما تواصلت - مثلاً - بين نور الدين وصلاح الدين ، لما طال أمر العدوان ، ولا ختزلت أيام المحنة والاستنزاف ... يقيناً .

ومع غياب القيادة المؤمنة في مراحل شتى من الصراع ، كان عالم الإسلام يشهد نقيصة أخرى . لقد راحت معظم القيادات السياسية والعسكرية تتطاحن فيا بينها فتستنزف الكثير من قدراتها من جهة ، وتدير ظهرها للغزاة من جهة أخرى ، كان الفاطميون يقاتلون العباسيين والسلاجقة ، وكان العباسيون يتآمرون على السلاجقة ، وكان هؤلاء يتناحرون فيا بينهم ، وكانت حشود الأمراء المحليين الصغار يقتتلون على هذه القلعة أو المدينة أو تلك المساحة التافهة من الأرض .

ولو حدث وأن توحدت هذه الطاقات الإسلامية جميعاً لكان الحال غير الحال ، ولتحققت مجابهة للعدوان أكثر فاعلية وأشد قدرة على اختزال الزمن وتنفيذ التحرّر المرتجى .

هذا إلى أن عدداً غير قليل من الأمراء المحسوبين على عالم الإسلام مارسوا أنماطاً من الخيانة وصنوفاً من الغدر من أجل منافعهم القريبة ومصالحهم العاجلة لعبت دروها في عرقلة حركة المقاومة ووضع العقابيل والحواجز في طريقها ، وكثيراً ما كان هؤلاء يوجهون طعناتهم القاضية في

أشد المراحل حساسية وخطورة فجلبوا ـ بذلك ـ على حركة المقاومة الكوارث والويلات ، ورغم أن الجهاد كان يستأنف المسير بعد كل كبوة ، ورغم أن قيادات المجاهدين ما كانت تأبه للغدر فإنها كانت تحتاج دوماً لزمنٍ اضافي كي تجدّد القدرة على مواصلة الطريق ... ترى كم من الأوقات المستقطعة كما يعبر الرياضيون في ساحات الألعاب ، اقتضتها تلك الخيانات فحسبت على زمن الصراع المرير ؟

وفضلاً عن هذا وذاك فإن الخليفة العباسي الذي كان يعاني منَ الضعف وهبوط الفاعلية ، يمثل ولا ريب ، باعتباره السلطة العليا لعالم الإسلام ، حاجزاً مكانياً وعقيدياً وسياسياً أمام قيام الأمراء المجاهدين بدور (الرجل الأول) الذي يدين له عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه ، والذي يستطيع من خلال مركزه القيادي الشامل أن يوظف جل الطاقات والقدرات الإسلامية من أجل المعركة ضد الغزاة ... لقد كانَ الخليفة مجرد ظل سياسي وعسكري ، ولكن تربّعــة قمــة الهرم ، وتردّده في العمــل في كثير من الأحيان ، أعاق مهمة احتواء التحدّي من قبل رجل قيادي كبير يقف في القمة شكلاً ومضموناً .

إن الخليفة إما أن يكون قديراً على الفعل التاريخي ، والتحرك الشمولي أو أن لا يكون على الإطلاق .. لأنه في حالة ضعفه وتهافته وعدم أخذه زمام المبادرة وحضوره الكامل في قلب الحدث ، لن ينسحب بشكل نهائي لكي يتيح المجال لظهور القيادة القمة التي تمارس الحضور التاريخي ، وسيبقى ظله يحجب بشكلٍ أو آخر ، تحقق هذا الهدف الخطير .

صحيح أن رجلاً كنور الدين محمود أو الناصر صلاح الدين أدّيا دورهما كاملاً ومارسا حضوراً تاريخياً فذاً ، ولكن ماذا لو أن نور الدين نفسه أو صلاح الدين نفسه كان خليفة المسلمين ؟

وغير هذه المعوّقات الرئيسية حشود من السلبيات والمعوّقات الثانوية لعبت دورها جميعاً في إطالة أمد الصراع ...

لقد انتهت الحروب الصليبية ، وطهّرت الأرض الإسلامية من آخر جيب للغزاة بعد قرنين من الزمن .

صحيح أن حقبة التحرير طالت بأكثر مما يجب للأسباب التي ذكرنا طرفاً منها ولكنها ـ على أية حال ـ حققت هدفها وطردت المعتدين عن آخرهم في نهاية المطاف ، ومعنى هذا أن (الاستعمار) أية كانت الصيغ التي يعتمدها والأردية التي يتزي بها والأهداف التي يسعى لتحقيقها ، لن يكون ـ مهما طال به الأمد ـ بأكثر من ظاهرة عرضية موقوتة لن تقدر على مدّ جذورها في الأرض والتحقق بالاستمرارية والدوام . إنه أشبه بالجسم الغريب الذي يزرع في كيان غير متجانس مع مكوناته وعناصره ، إن هذا الكيان سيلفظه إذ ليس ثمة ما يحقق التوافق المطلوب و (التعشيق) الذي يربط بين الطرفين ويوحّد تجربتهما ويختم على مصيرهما .

إن الأجسام الغريبة محكوم عليها بالطرد ، ولن تكون الأرض التي تسطو عليها وطناً لها في يوم من الأيام .. تلك هي حتمية التاريخ ...

والقرآن الكريم يقولها بوضوح : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ [١٨] فليس ثمة أمة أو جماعة أو دولة أو قوة في الأرض بقادرة على تجاوز حتمية التاريخ .. إنها لكلمات ثلاث ولكنها تلخص التاريخ البشري كله وتمنحه قيمته وحيويته وقدرته على الحركة في الوقت نفسه .

---

(١٨) سورة آل عمران آية : ١٤٠ .

(٤) حركة الالتفاف الغربي :

ما لبثت أوربا ، بعد سحق الوجود الإسلامي في أسبانيا ، أن بدأت بقيادة أسبانيا والبرتغال ، ومن بعدهما بريطانيا وهولندة وفرنسا .. عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على عالم الإسلام عبر خطوطه الخلفية في أفريقيا وآسيا ، والتي كانت بمثابة التمهيد لحركة الاستعمار القديم التي ابتلي بها العالم الإسلامي فيما بعد ، والتي استمرت حتى العقود التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية .

كان المماليك في مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء ، وكان اكتشاف الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجّه لتجارتهم التي هي بمثابة العمود الفقري لمقدراتهم المادية ، ضربة قاصمة ، أما العثمانيون فكان جهدهم منصب على اختراق أوربا من الشرق ، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التي تمكّنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك في بداياتها الأولى ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف .

ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية في المناطق التي ابتليت بالغزو دفاعاً مستميتاً ، وضربت مثلاً طيباً في مقاومتها المتطاولة للعدوان ، وألحقت بالغزاة خسائر فادحة على طول الجهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطىء قدمٍ لهم .

يقول جورج كيرك : « لقد كان هدف هنري الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الإسلام حربياً وتجارياً ، وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين والاتصال في جنوبي الصحراء بجون (حنا) نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب ، ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وخلال

القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والأسبانيون في الاستيلاء على موانىء شاطىء أفريقيا (مراكش والجزائر) سبتة وطنجة ومليلة والمرسى الكبير ، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر والخليج » .

« وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ واستطاع الفونسو البوكرك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز . ثم سيطر البرتغاليون على الخليج العربي خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكودي جاماً إلى موزمبيق وفي عام ١٥٠٢ م سيطر على زنجيبار ، وعام ١٥٠٥ خرج من البرتغال أسطول تعداده عشرون سفينة فاحتلوا سفالة وكلوة وممباسا وبلغوا مسقط وهرمز عام ١٥٠٩ . وفي عام ١٥١٩ احتلوا السواحل الأفريقية وانتزعوها من أيدي العرب » .

« غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمع فيه فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تقضي عليها ، فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج عام ١٥٨٥ وقابلهم أهل الساحل بحماسٍ شديد ، كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية ، ثم خلف الفرنسيون والهولنديون والإنجليز البرتغال وأسبانيا وخطوا خطوات واسعة كان أبرزها استيلاء هولندا على ارخبيل الملايو ، وفرنسا وإنجلترا على أفريقيا ، واستأثرت إنجلترا بالهند ، كما ناهض الإنجليز البرتغاليين وارسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام ١٦١٦ ، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم العربي من الغزو البرتغالي الأسباني الذي استهدف خنق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه ، سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ما عدا مراكش واستطاعوا مواجهة الاسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله ، و أدلوا منهم ، وبذلك

استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطىء البحر المتوسط للعروبة والإسلام ، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر فأرهب ذلك الأوربيين .

واستطاع أحمد بن سعيد عام ١٧٤٠ م أن يقف في وجههم في عمان ، حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة ، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠ هـ إلى ١٢٥٠ هـ وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج ، فأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح ، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة ، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والأفريقية .. ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا فعملوا على مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها ، وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل »[19] .

---

(١٩) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ عن جورج كيرك : حياة الشرق ؛ (مطبعة الرسالة ، القاهرة ـ ١٩٦٨) .

(٥) الاستعمار :

وجاءت الموجه الأوربية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة لتصريف بضائعها والحصول على الخامات الضرورية ، وتسخير الطاقات البشرية (الرخيصة) المستعبدة في أفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما يعرف بحركة تهجير العبيد التي كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء في تاريخ الصراع بين أوربا والشرق والتي ذهب ضحيتها عددٌ كبير من ابناء الشعوب الإسلامية في أفريقيا .

واستمرت هذه الموجة الاستعمارية التي قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندة وبلجيكا وإيطاليا ، وألمانيا إلى حدٍ ما ، حتى العقود الأولى من القرن العشرين وكان العالم الإسلامي فريستها الأولى ، بل إنه كان فريستها الوحيدة ، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثريات غير إسلامية ، وكانت رغم أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبّرت عن نفسها في أكثر من واقعة ، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل ، إن (غلادستون) رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف : ما دام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبداً ، (واللنبي) القائد البريطاني يعلنها بوضوح وهو يدخل القدس : الآن عدنا ياصلاح الدين .

ولا ننسى كيف أن هذه الحركة الاستعمارية تزامنت وارتبطت عضوياً بحركة التبشير النصرانية ، بجناحيها الكاثوليكي والبروتستانتي ، والتي انتشرت مراكزها في طول بلاد الإسلام وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها

المختلفة وتفتح أمامه الطريق وتخطى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والميزات .

ونحن نجد على سبيل المثال ، كيف أن رجلاً كالسيد G. W. Caropenter الأمين العام الممثل للمجلس الأفريقي في قسم البعثات الأجنبية للمؤتمر الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة ، يحذر من الخطر الإسلامي ضد الاستعمار الغربي بقوله : « وهكذا فإن الإسلام في أفريقيا يهيء مركز الحشد لكل أولئك الذين يقاومون التدخل الغربي ، نشاطه أو سيطرته » . ويذكر Bryan أنه : في المستقبل القريب سيجد الغربيون أنفسهم في صدام مع ثقافة موحدة أكثر عداءً لتدخلهم مما شوهد اطلاقاً تحت الظروف القبلية » وفي الوقت نفسه يظهر دهشته الكبيرة من قوة الإسلام في أفريقيا مستشهداً بقول المبشر Billy Graham من أنه : « مع كل فرد يكسب إلى صف المسيح فإن هناك سبعة يكسبون إلى صف الله » ، أما جون تايلور ، الخبير بالشؤون التبشيرية ، فيضع في كتاب (المسيحية والسياسة في أفريقيا) المخططات التي يمكن بواسطتها السيطرة على الأمور السياسية ، وتوجيه الانتخابات ، وتحطيم المسلمين الذين هم العثرة الأساسية ضد الاستغلال الاستعماري في أفريقيا .. وفي كتاب (التاريخ) الذي كان يدرس في الصف السادس والصفوف الأولى المتوسطة في الكونغو ، قبل استقلالها ، والذي ألّفه (جورج ديوارد) مدير إحدي المدارس الابتدائية في الكونغو ، يلفت انتباه المرء ما ذكره المؤلف في الدرس التاسع من الكتاب حول استجابة الملك البلجيكي (ليوبولد الثاني) لنداء البابا وإرساله الجيوش لتخليص الكونغو من العرب المستعبدين وطردهم بعد سنتين من الكفاح ، ثم تأسيس أول دولة كونغوية مستقلة عاصمتها بروكسل (عاصمة بلجيكا) وملكها ليوبولد الثاني (ملك بلجيكا)

ويجب أن نتذكر أنه في عهد الاستعمار الغربي للبلدان الأفريقية كانت المعرفة وا لتعليم محصورتين في البعثات التبشيرية ، وهذه بدورها كانت تقدم كل العون الممكن والتشجيع والرعاية لأولئك الذين يقبلون الدخول في النصرانية ، وهذا يفسّر لنا الوضع الراهن في معظم الدول الأفريقية حيث نجد أن غالبية السكان هم من المسلمين ولكن قيادتهم تقع في يد الأقليات الصغيرة النصرانية .. ومنذ قرن من الزمن شق (دافيد ليفنغستون) (أكبر المبشرين في أفريقيا) طريقاً هناك حدّد غايته بأنه « طريق للتجارة والاستعمار والتبشير »[٢٠] .

ولكن هذا الهجوم الاستعماري ـ الصليبي المضاد لم يمض بسلام ولم تركع الشعوب الإسلامية أمام إرادة القوة التي اعتمدها الغزاة ، بل شمروا عن ساعد الجدّ واستجاشوا قدرات الإيمان الدافعة ، ووازنوا بتضحياتهم ، وعشقهم الموت ، وركضهم إلى الشهادة ، نقص إمكانياتهم العسكرية والمادية .. وصنعوا بذلك الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلت استمرارية حركتهم ، وألحقت بهم الهزائم والويلات ، ووضعت في طريقهم الأسلاك الشائكة والألغام .

ليس هذا فحسب ، بل إن الاستجابة للتحدي الاستعماري النصراني بعث حركات إسلامية أصيلة تخلّقت في مناخ جهادي قاسٍ ، واستهدفت مقارعة العدوان وتحرير الأرض والعقيدة والإنسان ، وقدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث بها الغربيون قبل الشرقيين وملأت صفحات ناصعة بيضاء في معطيات التاريخ الحديث .

---

(٢٠) لمزيد من التفاصيل عن هذه النقطة انظر كتاب المؤلف (مأساتنا في أفريقيا : وثائق من تاريخنا المعاصر) (الفصل الثاني ص ٧١ ـ ١٤٤) وكتاب عمر فروخ ومصطفى الخالدي (التبشير والاستعمار في البلاد العربية) .

ونحن نذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ما يحدثنا بـه كارل بروكلمـان في كتابـه (تـاريخ الشعوب الإسلاميـة) عن مقـاومـة الجزائريين للاستعمار الفرنسي منذ بداياته الأولى وكيف أن مجاهـديهم تجمعوا تحت قيـادة شـاب يدعى عبد القادر الذي كان ابنـاً لأحـد المرابطين « وكان قـد أدى فريضـة الحج مرتين ، وإذ كان إلى تقواه بارعاً وشجـاعـاً فقـد وضعت قبيلتـا هـاشم وعـامر أنفسهما تحت إمرتـه على الرغم من حـداثـة سنـه ، حيث لم يكن قـد تجاوز الثانية والعشرين ، وما هي إلا فترة حتى تسمى بـأمير المؤمنين ودعـا إلى الجهـاد ضـد الفرنسيين ، فـدخل الجنرال دي ميشـال قـائـد وهران ، في مفـاوضـات معـه ، ولكن خلفــه الجنرال تريـزل استخف بقـوتــه فحـاول الاستيلاء على الجزء الداخلي من البلاد ، وفي ٢٦ تموز سنة ١٨٣٥ مني القائـد الفرنسي بهزيمة شنعاء عند نهر المقطع ، ومن ذلك الحين عُدَّ عبـد القـادر في طول أفريقيا الشمالية وعرضها حامي الإسلام ومنقذه » .

« ... وحسب الجنرال كلوزيـل الـذي عيّنتـه الحكـومـة الفرنسيـة حـاكماً عـامــاً ، كرة أخرى ، إن في ميسـوره الاستيـلاء على البـلاد بسبعــة الآف مقـاتل ، ولكنـه اضطر في خريف ١٨٣٥ إلى أن ترجـع بعـد قتـالٍ عنيـدٍ ، بخفيّ حنين ، ليعين محله ، بسبب من هذا الإخفـاق الجنرال دامريمون سنـة ١٨٣٧ وكان الجنرال بوجو قد حمل في أثناء ذلك حملة موفقة على عبد القادر الذي ما انفك ينزل ضرباتـه بـالمواقع الفرنسيـة في الغرب ، ولكن لمـا كانت الحكومـة راغبـة في أن تغسل ، أولِ الأمر ، العـار اللاحق بهـا في قسنطينـة فقـد اضطر بوجوِ إلى أن يعقـد مع عبـد القـادر معـاهـدة صلح لم تكن في صالح فرنسا على الإطلاق ، ذلك بأن عبد القـادر لم يسترد بوجبهـا قـاعـدة معسكر فحسب ، بـل مقـاطعـة وهران برمتهـا تقريبـاً وجـزءاً كبيراً من مقـاطعـة الجـزائر ، ومهما يكن من أمر فقـد بسط عبـد القـادر سلطـانـه ،

بالإضافة إلى ذلك في أتجاه الشرق أيضاً . كذلك تقدم في الصحراء وعمل على التمكين لحكمه من طريق تدريب جنده على الطرائق الأوربية ..

« وفي أواخر أيلول سنة ١٨٣٧ سار دامريمون على رأس اثني عشر ألف مقاتل إلى قسنطينة وأخذ يقذف المدينة بالمدافع وكان يود أن يشرع في اقتحامها بعد ستة أيام بيد أنه سقط صريعاً فحلّ فاليه محله في القيادة وبعد معارك دامية دارت رحاها آخر الأمر في شوارع المدينة سقطت القصبة وهي الحصن المطل على المدينة وتقدم الفرنسيون للاستيلاء على مواقع أخرى ، فاعتبر عبد القادر هذا نقضاً لمعاهدة تافنا ودعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين ووجّه إليهم ضربات قاسية لكنهم ما لبثوا أن أخذوا يشددون الخناق عليه ... وبعد خمسة أعوام من المقاومة المتواصلة أرغم عبد القادر على الانسحاب إلى مراكش بعد أن خسر الكثير من جنده » [٢١] .

أما في مراكش فيبرز اسم الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي وابنه محمد وقد تزعم الأب حركة الجهاد ضد الأسبان في الريف (شمالي المغرب) مدة طويلة واضطر ابنه محمد أن يترك وظيفته ويرحل إلى قبيلته لكي يكافح العدو بجانب أبيه . واستطاع الأعداء في إحدى المعارك أن يخطفوا الأمير (محمد) وراحوا يساومون والده لكي يهادنهم في مقابل إنقاذ ابنه الأكبر ، ولكن عبد الكريم رفض المساومة وأعلنهم بأنه يضحي في سبيل وطنه بكل شيء . وحاول الاستعماريون الأسبان مساومة الأمير داخل السجن لكي يرسل إلى والده خطاباً يناشده فيه مهادنة الجيوش الأسبانية ، ولكنه رفض الخضوع لهم ، واضطر الأسبان إلى إطلاق سراحه كمحاولة لتهدئة الحالة في الريف المراكشي ، ولم يكد الأمير ينضم إلى قبيلته حتى كان

---

(٢١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢٢ ـ ٦٢٥ (الطبعة الخامسة) ، (ترجمة فارس والبعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٦٨) .

الأسبان قد دبروا اغتيال والده ، فتولى محمد القيادة بعده .

قضى الأمير الثائر سبعة شهور في الاتصال بالقبائل لتصفية ما بينها من خلافات ، ثم بدأت أولى المعارك التي قادها ضد المستعمرين بمعركة صغيرة اسمها معركة (جبل القامة) .. كان المجاهدون قوة صغيرة تحرس الجبل ، واتصل بهم نبأ استعداد الأسبان للهجوم عليهم فأشعلوا النار في أشجار الغابة ، ورأت القوات المرابطة في القرى المجاورة إشارة النيران فأسرعت بالانضمام إلى القوة الصغيرة حول الجبل ، وعند الفجر دارت المعركة ، وبعد ساعات اضطر الأسبان للانسحاب بعد أن لحقتهم الهزيمة . ثم جاءت المعركة الكبرى معركة (أغربين) كان المجاهدون ألفين يواجهون ثلاثين ألف جندي أسباني تحت قيادة الجنرال سلفستري مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الميدان ، بينما كان المجاهدون مسلحين بالبنادق فقط . وأرسل الجنرال سلفستري إنذاراً إلى الأمير المجاهد يطلب منه التسليم قبل مضي أربع وعشرين ساعة ، فردّ عليه بهجوم مباغت سريع ، واستمرت المعركة قوية رهيبة طوال خمسة أيام وعلى امتداد جبهة طولها ٦٠ كيلو متراً تنتهي عند قرية سيدي إدريس على شاطىء البحر المتوسط .

وكان للهجوم المفاجىء أثره في انتشار الذعر بين صفوف الأسبان ، فقام المجاهدون بحركة التفاف سريعة حتى طوقوهم تماماً بعيداً عن ذخيرتهم ، وشدّدوا عليهم الحصار عدة أيام أكلوا فيها خيولهم ، وأخيراً وبعد أن قتل المجاهدون منهم ثمانية آلاف وأسروا ثلاثة آلاف ، لاذ الباقون بالفرار وتركوا كميات هائلة من البنادق والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة ، أما الجنرال سلفستري فقد آثر الانتحار !

واستمرت المعارك بعد ذلك .. كان المجاهدون خلالها يحاربون الجيوش الأسبانية بما يغنمون من أسلحتها . وقد خاض الأمير الخطابي ضد الأسبان

أكثر من مائتي معركة ، وكان النصر حليف المجاهدين في كل معاركهم بقيادة الأمير ، وحاول الأسبان أن يدخلوا مع المجاهدين في مفاوضات أساسها منحهم الحكم الذاتي تحت الحماية الأسبانية ، وعرضوا على الخطابي منصب السلطان ولكنه رفض المنصب ورفض المفاوضة !

ولما شعرت فرنسا أن أسبانيا ستخرج حتماً من الريف المراكشي بقوة السلاح خشيت من انقضاض المجاهدين عليها في الجنوب بعد انتصارهم على الأسبان ، فآثرت أن تدخل المعركة فوراً لتنقذ الأسبان من وطأة القتال مع المجاهدين وفتحت جبهة جديدة للقتال في غرب مراكش ، واستعملت أساطيلها ، وألقت في المعركة بمليون جندي وخمسين طائرة ، وكانت الطائرات تلقي القنابل المحرقة والقنابل شديدة الانفجار ، ثم بدأت تلقي قنابل الغازات السامة ، وفقد الأمير المجاهد بصره بفعل الغازات ولم يسترده إلا بعملية جراحية ، وقد اشترك في المعارك الدامية أكثر من أربعين ألفاً ضد الأسبان والفرنسيين ، استشهد معظمهم ، كما استشهد كثير من السكان الآمنين في الهجمات الوحشية التي شنّها العدو .

وفي السادس والعشرين من مارس سنة ١٩٢٦ وقع الأمير المجاهد مع كل أفراد عائلته في الأسر ، وشردت فرنسا وأسبانيا كل أعوانه وجنوده . وحرمت الدولتان على شعب مراكش أن يسمي أبناءه باسم (عبد الكريم) ، ثم مالبثت فرنسا أن قررت نفي الأمير وأسرته إلى جزيرة (ري أونيون) بالقرب من مدغشقر[٢٢] .

وتبدو مقاومة المجاهدين الليبيين للإيطاليين صفحة مؤثرة في تاريخ الصراع الإسلامي ضد المستعمرين « ولقد أجمع الباحثون العرب والأجانب

(٢٢) د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٤ / ٢١٠ ـ ٢١٤ (الطبعة الثانية) (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ـ ١٩٦٦) .

على بطولة أبناء ليبيا رجالاً ونساءً ، لقد وقفوا مدافعين عن بلادهم في صلابة وإصرار قلّ أن يوجد لها نظير في التاريخ ، وواضح من سير الأمور التاريخية أن المستعمر الإيطالي لم ير في ليبيا لحظة هدوء قط ، وقد قدمت ليبيا حوالي نصف سكانها شهداء في المعركة ولكنها استمرت تمدّ المعركة بأزهى شبابها وشيوخها ، ولعبت المرأة الليبية دوراً رائعاً واشتركت في المعارك اشتراكاً فعلياً يثير الدهشة ، ولم تكتف بالخدمة والتمريض بل حملت السلاح وألقته بنجاح في قلب غريمها الإيطالي المسعور »[٢٣] .

ولقد بلغ الجهاد الليبي ذروته تحت قيادة المجاهد المعروف عمر المختار طيلة الفترة بين ١٩٢٣ و ١٩٣١م ردّاً على التحدي الإيطالي الفاشتي واستيلاء موسوليني على الحكم في تشرين أول عام ١٩٢٢ وإعلانه آراءه الاستعمارية المتطرفة .

« وقد أحسّ الأمير الليبي محمد إدريس السنوسي أن إيطاليا تنوي أن تنكل به فغادر ليبيا إلى مصر وعهد إلى السيد عمر المختار بالنيابة عنه في قيادة الجهاد ببرقة حيث تدفق كثير من المجاهدين للانضواء تحت قيادته » .

« ولد عمر المختار سنة ١٨٦٢م وتعلم في إحدى المدارس السنوسية ثم أتم تعليمه في الجغبوب ، واختاره السيد أحمد الشريف ليتولى مشيخة زاوية القصور ، واشترك في الجهاد ضد الفرنسيين في ودّاي وعمل على نشر الإسلام في تلك الربوع ، ثم آلت له القيادة العامة لمقاومة الإيطاليين سنة ١٩٢٣ وكان اختياراً موفقاً لما كان يتحلى به من صدق العزيمة وكبر التضحية وعلو الخلق ورباطة الجأش والإيمان بالله والإخلاص للوطن » .

« وقد حشد الفاشست آلاف الجنود وأضخم المعدات لمقاومة عمر المختار ،

---

(٢٣) المرجع السابق ٤ / ٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

وحشد لهم عمر المختار إيماناً ووطنيـة وحسن تصريف للأمور ، أمـا أسلحتـه الحربية فلم تكن بذات غناء ، وكان شعب برقة كله يؤيـده ويقف صـامـداً في هذه الحرب المريرة ، وقـد اعترف بـذلـك قـادة الطليـان مثل غرازيـاني وبيابو ياتش وغيرهما ... وقد عانت برقة الكثير من عسف الطليان في هـذه الفترة ، وكانت الحرب تدميراً وإفنـاءً .. طـائرات ترسل الموت ، ودبـابـات تسحق القرى .. ومدافع تحصـد النـاس ، وسجون يلقى فيهـا الأبريـاء ، كما شملت مصادرة الأموال وهتك الأعراض ، وكان مما فعلـه غرازيـاني أن أنشأ « المحكمة الطائرة » وهي محكمة عسكرية متنقلة تحكم بالشبهة وينفـذ حكمهـا في الحال بمرأى من النـاس ، ومع هـذا فقـد ظل عمر المختـار يقـاوم بصلابـة وطالما أوقع بأعـدائـه الهزائم وأنزل بهم الموت واستولى على أسلحتهم ، ولكنـه في النهاية وقع أسيراً في أيلول سنة ١٩٣١م وكان غرازياني في إيطـاليـا فلمـا بلغه ذلك الخبر عـاد مسرعـاً إلى ليبيـا ، وأمر المحكمـة الطـائرة أن تطير إلى حيث قبض على المجاهد بالقرب من سيـدي رافع . وجرت محـاكمـة صوريـة للمختار ، ثم صدر الحكم بإعـدامـه وحُشـد الآلاف من أهل برقـة ليشـاهـدوا إعدام البطل في السادس عشر من أيلول سنة ١٩٣١ ... »[٢٤] .

و مـن أجل تأكيد البعد الصليبي ، النصراني للاستعمار الإيطالي ، كما هو مؤكد بالنسبـة لكل صنوف الاستعمار الأخرى ، لابـد من الإشـارة إلى بعض الوقائع والمعطيات ، بإيجاز شديد ، فلقد « سلكت إيطـاليـا في ليبيـا نفس الطريق الذي سلكته فرنسا في الجزائر فادعت أن أرض ليبيا امتـداد لشبـه الجزيرة الإيطالية ، ولجأت إلى حرب الإبـادة بـالنسبـة لأغلب السكان ، كما لجأت إلى « طلينـة » البـاقين بحملهم على ترك اللغـة العربيـة وتعلم اللغـة الإيطـاليـة .. وبـذلت الإدارة الإيطـاليـة جهـداً كبيراً لتنصير الليبيين ..

---

(٢٤) المرجع السابق ٤ / ٤١٤ ـ ٤١٧ .

ومنعت طلاب الدراسات الإسلامية من السفر لمصر للالتحاق بالأزهر الشريف ، أو إلى تونس للالتحاق بجامع الزيتونة ، واتجهت إيطاليا إلى القضاء على الثقافة العربية الإسلامية ، فأغلقت المدارس الإسلامية ولم تسمح بحلقات العلم بالمساجد ... »[٢٥]

وقد كتب المراسلون الأجانب الذين كانوا مرافقين للحملة الإيطالية عبارات استنكار لما شاهدوه ، وترك بعضهم الحملة وغادر ليبيا ، ومن هؤلاء فرانسز ماكولا الذي كتب للجزار الإيطالي الجنرال كانيفا يقول وهو يودع ليبيا : إنني أرفض البقاء مع جيش لا أعدّه جيشاً ولكن عصابة من قطاع الطرق والقتلة . وكتب المراسل الألماني فون غوتنبرغ يقول : إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان في طرابلس ، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء قبض عليهم في الميدان أو في بيوتهم . وحتى الرهبان الذين يتظاهرون بخدمة الإنسانية أسهموا في تعذيب المرضى ، وفي ذلك يقول هرمان رنول المراسل النمساوي : وأحرق الطليان في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩١١ حياً بأكمله خلف بنك روما بعد أن ذبحوا أكثر سكانه وبينهم النساء والشيوخ والأطفال . وشاهدت عربياً يحتضر فرجوت راهباً من خدمة الصليب الأحمر اسمه (بافيلاكو) أن يعطيه بعض الماء ، ولكنه حول نظره عني وقال : « لا تزعج نفسك به ، دعه يموت » !!

وراح الطليان يخربون المساجد ويتخذونها إسطبلات للدواب ، كما راحوا يدوسون القرآن الكريم كلما وجدوه ويهتفون : هاتوا نبيكم البدوي يحميكم أو يحمي كتابكم .

---

(٢٥) المرجع السابق ٤ / ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

ويصف شاهد عيان معركة الكفرة التي حدثت سنة ١٩٣١ فيقول : ودخل الطليان الكفرة ولم يبق بها إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، فانتشر الطليان فيها وفي قرية التاج مستبحين كل حرمة ، ونهبوا الأموال وذبحوا الشيوخ والأطفال ذبح الخراف وبقروا الحوامل وهتكوا الأعراض وحرقوا المساجد وداسوا المصاحف .

ونختتم هذه الوقائع الموجزة ، وهناك غيرها ـ طبعاً ـ المئات والألوف ، نختتمها بتلك الأنشودة التي يرويها لنا الأدب الإيطالي والتي كان الجنود الإيطاليون يحفظونها ، وهاكم نصّها : « أنا ذاهب إلى ليبيا فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ، ومحو القرآن ، وإذا متّ يا أماه فلا تبكيني ، وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي : لقد مات وهو يحارب الإسلام » (٢٦) .

---

(٢٦) المرجع السابق ٤ / ٤٠٣ ـ ٤٠٥ وهو يستشهد بنصوص وردت في كتاب هام وقد نشرته هيئة تحرير ليبيا بعنوان (الفظائع السود الحمر) الصفحات ٢١ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٦ .

(٦) الاستعمار الجديد (الإمبريالية) :

رغم أن الهجوم الاستعماري الجديد على عالم الإسلام لم يكن مدججاً بالسلاح إلا أنه ما كان بأقل خطراً من الهجوم السابق إن لم يفقه قدرة وتأثيراً . ذلك أنه اعتمد سلاح الغزو الفكري الذي يستهدف تدمير العقيدة ، ومسخ الثقافة ، وتفكيك الشخصية الإسلامية ، وإفراغها من محتواها ، وتحويلها إلى أداة لخدمة المصالح الأساسية للمراكز الإمبريالية في الغرب ، وبخاصة أمريكا .

وكان هذا الهجوم يستند إلى مجموعة من العوامل المساعدة مكّنته عبر العقود الأخيرة من تحقيق أهداف حاسمة ضد الإسلام والمسلمين والأراضي الإسلامية ؛ فمن بين هذه العوامل المساعدة : التفوق العسكري والسياسي والاقتصادي ، والاستراتيجي عموماً ، للمعسكر الغربي على الشرق الإسلامي ، ومنها التفوق الحضاري ، وامتلاك أساليب الجذب والتأثير ، ومنها اعتماد جيش من العقول والخبرات الشرقية التي صنّعت في مراكز التوجيه الغربي ، بغض النظر عن موقعها الجغرافي في أوربا أم أمريكا أم في العالم الإسلامي نفسه ، وقذف بها هذا العالم من خلال تسلّمها مراكز التوجيه والتأثير السياسية والاقتصادية والتربوية والتعليمية والإعلامية والثقافية .

ولم يعد من الضروري في كثير من الأحيان أن تتحرك القوات الغربية لكي تدافع عن مصالحها المهددة في بلاد الإسلام ، بل يكفي أن تعتمد هذه الجيوش المصنّعة في المختبرات الغربية لكي تحمي تلك المصالح وتجابه التحديات الإسلامية وترسم الخطط لتدميرها أو ـ على الأقل ـ شلّها عن الفاعلية والعمل والتأثير .

إن الحـديث عن الغـزو الفكري الـذي هـو واحـد من أعمـدة الاستعمار الجـديـد ، يطول ، وقـد قيل فيـه الكثير ، ولكننـا وفق مقتضيـات المنهج الذي اعتمدناه في هذا البحث نشير إليه مجرد إشارة لكي نضعه في مكانه الحق من خارطة الهجمات المضـادة للإسلام ، ولكي نعرف أبعـاده وتـأثيراتـه ونحن نتحدث عن الغزوات النصرانية للإسلام عبر التاريخ .

ورغم كثرة ما كتب في هذا الموضوع فـإن الحـاجـة تظل مـاسّـة لبلورة المؤشرات الأساسية للغزو الفكري والنتائج التي ترتّبت عليـه ولا تزال ، من أجل إيضاح الصورة الدقيقة لهذا الهجوم وتمكين المسلمين أنفسهم من تحـديـد مواقعهم الفعّالـة في المجـابهـة ، إذ أنـه الهجوم المضـاد الأكثر معـاصرة والـذي لازلنا نعيشه ونعانيه عبر لحظات المصير .

●○●○●○●○●○●○●

إيداع ٨٦/٥٤٧٨

مطابع الطوبجي التجارية
القاهرة ـ ت: ٣٦٣١٠٦٠